وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية

محاضرات

في تاريخ أوربا في العصور الوسطى

(٤٧٦ – ١٤٥٣)

الأستاذ الدكتور رائد سامي حميد
قسم التاريخ

المرحلة الاولى

٢٠٢٤ – ٢٠٢٥

المحاضرة السابعة

محاولات إصلاح الإمبراطورية الرومانية في الغرب
إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين الكبير وثيودوسيوس الأول

إصلاحات دقلديانوس ونتائجها

ان اعتلاء دقلديانوس العرش يمثل بحد ذاته أمرين مهمين كانا يميزان وضع الإمبراطورية خلال تلك الفترة من تاريخها: **أولهما** تركيب الجيش الروماني من عناصر غير رومانية و**ثانيهما** الدور الذي كان يؤديه الجيش في سياسة الإمبراطورية. وعلى أية حال، فان دقلديانوس نفسه يعد خير ممثل للعصر الذي عاش فيه.

عمل دقلديانوس على تقوية مركز الإمبراطور فجرد مجلس الشيوخ من جميع ما تبقى له من سلطات. ولم يعد هذا المجلس سوى مجلس بلدي يخص العاصمة روما. وصارت السلطة مركزة بيد الإمبراطور يساعده في الحكم جهاز إداري ضخم ، وكان الإمبراطور – بمساعدة ذلك الجهاز– يشرف على كل جزء من أجزاء الإمبراطورية، وبهذا قضى دقلديانوس على النظام الذي وضعه أوغسطس الذي كانت السلطة فيه موزعة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ . ذهبت كل مظاهر النظام الجمهوري التي كان يتشبث بها الأباطرة قبل قلديانوس وحل محلها نظام استبدادي كان دقلديانوس مدركاً الوضع المزري الذي كان فيه المركز الإمبراطوري، لذا حاول بكل الوسائل أعادة الهيبة الى الإمبراطورية ، من ذلك انه أنشأ بلاطاً فاخراً أحاطه بكل مظاهر الفخامة والفخفخة.

رأى دقلديانوس ان الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها رجل واحد، لذا قسم الإمبراطورية الى قسمين، وقسم كل واحد منهما الى جزئين. يحكم القسم الواحد شخص يحمل لقب **إمبراطور** يساعده شخصان يحكمان الجزئين اللذين يكونان قسمه يعرف كل واحد منهما باسم **قيصر** . وكانت الأجزاء الأربعة مقسمة بدورها الى مناطق وعدد هذه المناطق **(١٠٠) منطقة** متساوية في المساحة تقريباً. كان حكام المناطق يعينون ويعزلون من قبل الامبراطور.

وعلى الرغم من أن السلطات المحلية قد ضعفت كثيراً نتيجة لهذه الإصلاحات، فان الامتيازات الشخصية استمرت، إذ أن كبار موظفي الحكومة كانوا قد كونوا طبقة خاصة يحمل

أصحابها القاباً فخمة ، ويضاف الى هؤلاء الموظفين الكبار جماعة الشيوخ. كون كل هؤلاء طبقة متميزة، كان عدد أفرادها في ازدياد مستمر نتيجة لقيام الإمبراطور بمنح بعض الأفراد امتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب والإعفاء من بعض الواجبات الحكومية الأخرى وإقطاعهم الضياع والأراضي. ومع أن الوظائف والمناصب الحكومية لم تكن وراثية، فإنها أصبحت كذلك لأن بقية الفئات والطبقات كانت في أوضاع اجتماعية غير قابلة للتبدل والتغيير.

أعاد دقلديانوس **تنظيم الجيش**، واستمرت عملية تحصين المدن الداخلية وأصبحت فرق الحدود مقيمة، وصار أصحابها من ذوي الامتيازات ومن كبار الملاكين، ولجأ دقلديانوس الى إنشاء قوة جديدة متحركة يمكن نقلها بسرعة من محل الى آخر في أي جزء من أجزاء الإمبراطورية قد يتعرض الى الخطر. ولتوفير ما يقرب من (٥٠٠) الف جندي ، وهو ما تحتاجه الإمبراطورية، اضطرت الحكومة الرومانية الى تشجيع **الجرمان والبربر والعرب** على الانخراط في جيشها. والواقع إن قبائل جرمانية بجملتها سمح لها باجتياز حدود الإمبراطورية على اعتبار انها حليفة للإمبراطورية وأنها تكون جزء من قوة دفاعها.

أراد دقلديانوس إصلاح الأوضاع الاقتصادية في الإمبراطورية، فحاول السيطرة على العملة وثبيت قيمتها وتحديد أسعار المواد الغذائية، وإيجاد نظم جديدة للضرائب والسيطرة على جميع المشاريع الاقتصادية التجارية والصناعية والزراعية. وكانت الأزمة المالية هي المشكلة الاقتصادية المباشرة التي واجهت الإمبراطورية الرومانية، وتتلخص في زيادة مصروفات الحكومة على وارداتها، وذلك نتيجة للجهاز الإداري الضخم والجيش الروماني الكبير من جهة، وسوء نظام الضرائب من جهة أخرى. نجح دقلديانوس في تثبيت قيمة العملة، ولكن النقود الذهبية والفضية بقيت شحيحة وقليلة.

ومن إصلاحات دقلديانوس المهمة تنظيمه **أصحاب الحرف** المختلفة في **نقابات أصناف** وكان الغرض من ذلك إجبار كل نقابة على إنتاج مقدار معين من الوحدات الصناعية ، وذلك لغرض المحافظة على كمية الإنتاج الذي كان يعاني نقصاً مستمراً. كما ان تنظيم أصحاب الحرف في نقابات كان ييسر أمر جباية الضرائب من أفرادها، فقد صارت كل نقابة ملزمة بدفع مقدار معين من المال الى الحكومة ، وهي بدورها تجمع ذلك المال من منتسبيها، وأجبر دقلديانوس

الأبناء على الانخراط في نفس الحرف التي كان يمتهنها آباؤهم، وكان لهذه الإجراءات أثرها في تخفيف هذه الضائقة المالية التي كانت تعاني منها الحكومة ولكنها في الوقت نفسه ألحقت أبلغ الضرر بالمشاريع الفردية. وأدت على المدى البعيد الى ركود الحياة في المجتمع الروماني.

وامتدت يد دقلديانوس الى **الريف**، ولكن قوة كبار الملاكين هنا حدت من سلطة الحكومة وحالت بينها وبين إحداث أي تغيير جذري في وضع الريف الروماني، كما أن ضريبة الأرض كانت مصدراً أساسيا للدخل الحكومي. وكل ما فعلته الحكومة عندما تدهورت الزراعة وتناقصت الضريبة إنها منعت الفلاحين الأحرار من ترك أراضيهم، وأوكلت جمع الضريبة منهم الى كبار الملاكين. واحتفظ هؤلاء لأنفسهم بالجزء الأكبر من الضرائب التي كانوا يجبونها من الفلاحين. وبمرور الزمن أسندت الى كبار الملاكين واجبات حكومية أخرى كحفظ الأمن المحلي والقضاء . هيمن قسم من كبار الملاكين على مقاطعات واسعة جداً وتمتعوا فيها بنفوذ كبير للغاية، وصاروا بذلك حكاماً مستقلون فعلاً. وهؤلاء هم بعض أسلاف النبلاء الإقطاعيين الذين سادوا أوربا خلال عهد الإقطاع من العصور الوسطى.

من هذا العرض لإصلاحات دقلديانوس، يلاحظ انها كانت حلولاً عملية لأوضاع حرجة تتطلب حلولاً سريعة ومؤقتة. وكانت النتيجة جيدة في بعض الحالات فقد أعيد الأمن الى اغلب أجزاء الإمبراطورية، وحفظت الحدود، لمدة قرن اخر من الزمن . لكنها عموما لم تستطع أن تعيد الحياة الى إمبراطورية تسير في طريق الانهيار ، وكانت بعض علاجاته كتقسيم امبراطورية من الناحية النظرية قد هيات الظروف لإضعاف الجزء الغربي منها ومن ثم سقوطه عمليا في أواخر القرن الخامس الميلادي .

الامبراطورية في عهدي قسطنطين الكبير وثيودوسيوس الأول :

اعتلى الإمبراطور **قسطنطين الكبير** العرش في مطلع القرن الرابع وكان بحق من أعظم الأباطرة في التاريخ الروماني. فقد نجح في بسط سيطرة الدولة على أجزاء الإمبراطورية، بعد أن قضى على منافسيه الطامعين في العرش. كما أنه دافع بنجاح عن الحدود. ويعد **الاعتراف بالمسيحية** بموجب مرسوم ميلان عام ٣١٣ م وبناء مدينة القسطنطينية التي اكتمل بناؤها في

عام ٣٣٠ م من أهم إنجازات هذا الإمبراطور العظيم. وبالنسبة للأمر الأول فقد اعترف قسطنطين بموجب مرسوم ميلان بالديانة المسيحية وبذلك أصبحت هذه الديانة في مستوى الديانات الأخرى السائدة في الإمبراطورية الرومانية، وبهذا قضى على مشكلة مهمة من مشاكل الإمبراطورية التي بقيت لمدة طويلة مصدراً للمتاعب وعدم الاستقرار.

اما بالنسبة الى بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية في الشرق فقد قام الإمبراطور ببناء مدينة كبيرة محل بلدة بيزنطة القديمة على الضفة الآسيوية للبسفور عند اتصاله ببحر مرمرة وتأسيس هذه المدينة بحد ذاته يشير الى الأهمية المتزايدة للأقاليم الشرقية من الإمبراطورية وأنشئت هذه لتكون عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الى جانب **روما عاصمة الغرب**.

وبينما سارت هذه المدينة في طريق النمو والازدهار منذ تأسيسها، فان روما من جهة أخرى كانت تسير نحو التدهور والاضمحلال. ففي أواخر القرن الرابع اعتلى الإمبراطور **ثيودسيوس** العرش في ظروف عصيبة ولدتها معركة أدرنة الشهيرة التي دمر فيها الجيش الروماني أمام **الغوط الغربيين**، واستطاع ثيودسيوس ان يعيد شيئاً من الثقة والاستقرار. ومن أعماله المهمة قيامه بفصل الإمبراطورية الرومانية فصلاً تاماً الى إمبراطوريتين واحدة في الغرب عاصمتها روما وقد خص بها ابنه **هونوريوس**، وأخرى في الشرق عاصمتها القسطنطينية خص بها ابنه **أركاديوس** ، وبهذا يكون ثيودسيوس قد أتم ما شرع به كل من **دقلديانوس** و**قسطنطين**. فالأول بدأ بفكرة تقسيم الإمبراطورية، ولكن تقسيمه كان صورياً فقد بقيت في الواقع إمبراطورية واحدة. والثاني انشأ فعلاً عاصمة جديدة فصارت للإمبراطورية عاصمتان. وجاء ثيودسيوس ليتخذ الخطوة الأخيرة في عملية الفصل، بتقسيمه افمبراطورية بين ولديه .